III. وظيفة الأدب

لا يمكن تناول الأدب من زاوية الطبيعة وحدها، أو دراسة بعض الأسئلة الخاصة بالأدب دون الجمع بين الطبيعة والوظيفة، فطبيعة الأدب تحدد وظيفته، إذ من غير المعقول أن نبحث في الأدب عن أجوبة لأسئلة بعيدة عن طبيعته وما خُلق لأجله (أي الوظيفة)، إلا حين تنتهي مهمته لتفتح له باب مهام ثانوية كالتأريخ لثقافة مرحلة أو لطبيعة التفكير في عصر من العصور، وهو مثال البيانو، عند روني ويليك، الذي تحول من آلة موسيقية ليصير مكتبا أو طاولة بعد أن صار غير صالح للعزف.

فالتنتاج الأدبي لا يسلم من مضافات التاريخ وتطور المجتمعات، غير أن هذه المضافات لا تغير من وظيفة الأدب ولا ينقص انعدامها من قيمته (كالإعجاز العلمي والقرآن).

إن العودة إلى التاريخ تكشف عن محطات تاريخية لم تكن فيها الحدود واضحة بين الأدب والتاريخ والدين، وأبرز مثال على ذلك ما عرفته الحضارة الإغريقية خاصة عند أسخيلوس وهسيود، غير أن أفلاطون كان السباق في إثارة الصراع القديم/الجديد بين الشعراء والفلاسفة في زمن البناء الأول، أي زمن سطوة الخطابية/البلاغة والخطباء، وحيث كان الفلاسفة يبحثون عن السلطة المفقودة.

ف"الفن للفن" كانت مقولة عرفت الانتشار والذيع في نهاية القرن التاسع عشر، في مقابل ما كان سائدا في عصر النهضة حيث كان الشعر أداة تجمع بين التعليم والإمتاع أو أداة ممتعة للتعليم. وهي مقولة لم تستطع الدراسات التخلص منها، بل انقسم حولها الدارسون بين تيارين:

1- تيار لا ينظر إلى الشعر إلا باعتباره أداة إمتاع.

2- تيار آخر يرى الشعر جامعا بين المتعة والتعليم بعيدا عن النظرة الضيقة إلى أطره وقواعده.

ومها كان الأمر، فل كلا الرأيين آفاته التي يمكن أن تعصف بالفن وبمفهومه وبوظائفه، لأن التسليم بأن الفن والشعر تخصيصا أداة للإمتاع تقود نحو إنكار كل الرؤى والصور التي يختزنها الشعر عن العالم والإنسان والحياة، أما التسليم بأن الشعر صنعة وعمل فيبعد عن الشعر كل مقوماته وما يثيره في الذات القارئة من نشوة وفرح، وما يحركه من أحاسيس بوسائل، لذلك من الضروري لكل رؤية أن تقرن بين المتعة والتعليم (الاستعارة المعرفية أو المفهومية).

فالمتعة قرينة التزجية والهروب، غير أن ذلك قد يكون لصيقا بنوع من الأدب جرى عبر التاريخ تمييزه عن الأدب الجيد أو العظيم، وسمي بذلك أدبا سوقيا، ورغم ذلك فهذا التقسيم غير مقنع، فالأدب الذي حمل

مواصفات أدب لا يمكن إلا أن يجمع في وظيفته بين الإمتاع والتعليم، أي بين أداة من أدوات التعبير عن مخزون أو مكبوت عاطفي أو فكري، وبين أبعاد فكرية تختفي خلف كل هذا الركام من الصور والتأمل في الكون والعالم والإنسان.

يقول روني ويليك: "حين يؤدي العمل الأدبي وظيفته تأدية ناجحة فإن "نغمتي" الفائدة والمتعة لا يجوز أن تتعايشا فقط بل يجب أن تندمجا. ونحن هنا بحاجة إلى أن نؤكد على أن متعة الأدب ليست إحدى المتع المفضلة بين قائمة طويلة من المتع الممكنة، وإنما هي "متعة رفيعة" لأنها متعة بأرفع نوع من الفعالية، أي بالتأمل غير الاكتسابي". (نظرية الأدب، ص 31).

غير أن سؤالاً آخر، ربما أكثر تعقيدا من سؤال الأدب بين الإمتاع والتعليم، يظل مطروحا، إنه سؤال وظيفة الأدب بين الأحادية والتعددية، فهل للأدب وظيفة أم وظائف؟

فالدراسات التي خصصت لبحث مهام الأدب ووظائفه اتجهت صوب البحث عن مهام النقد كما جاءت عند بواس، أو البحث في فوائد الشعر انطلاقا من رؤية إليوت الذي اعتمد على تعددية الشعر وتنوعه لتوازيه بذلك مهام يؤديها كل نوع من هذه الأنواع.

فالأدب قد يمثل بديلا عن الرحلة أو السفر أو الخبرة المباشرة، كما يمكن أن يمثل بديلا عن الحياة بناء على الحياة التي يقدمها وإن كانت وهمية، دون إغفال البعد التوثيقي للأدب والذي يمكن لدارس تاريخ الحضارة أن يستعين به لتوثيق بعض تفاصيل مراحل تاريخية تجسد هذه الأعمال صورة عنها. غير أن كل هذا المهام لا يمكن اعتبارها حكرا على الأدب، بل يمكن أن يتقاطع فيها مع أجناس وإنتاجات أخرى تمتد من الرسم إلى الموسيقى إلى النحت وغيرها.

إن إشكال وظيفة الأدب يقود مباشرة إلى بحث سؤال الخلود، فربط الإبداع الأدبي بوظيفة مباشرة ربما يحيل إلى انتهائه بانتهاء وظيفته، وهو ما يعني موته، وهو الأمر الذي ترفضه بعض الدراسات بدعوى أن الأدب ليس ضمن البقايا، بل هو جزء من حياة الإنسان وهذا ما يضمن خلود الأدب واستمراره على الدوام.

غير أن هذا الخلود لا يمنع من استمرار الإشكال القديم، ونقصد به علاقة الأدب بالمعرفة وإنتاجها.

إن الطريق نحو الحقيقة ليس واحدا، بل إن الحقيقة ليست واحدة، بل هي حقائق، فرغم أن الفكر الوضعي يعتبر الطريق إلى الحقيقة هو طريق الاستدلال الصوري والبرهاني، فإن تلك نظرة ضيقة

واختزالية لا تأخذ بعين الاعتبار تعددية الحقائق وطرق المعرفة، لذلك يميز الدارسون بين الطرق النظرية في الوصول إلى الحقيقة، وبين الأسلوب التمثيلي التي تعتمد الفنون للوصول إلى الحقيقة، وهو تمييز يرتكز على نظرة موسعة تجاه الحقيقة، وقد لخص ماكليش في كتابه "فن الشعر" ذلك التعالق بين الجمال الأدبي والفلسفة بقوله: "الشعر يساوي: ما هو غير حقيقي"، فللشعر رصانة الفلسفة (والعلم والمعرفة والحكمة) وأهميتها ويحوز ما يعادل الحقيقة، إنه شبيه بالحقيقة". نظرية الأدب، ص 35.

غير أنه وفي مقابل هذا الرأي، يوجد رأي آخر يميز بين اكتشاف الحقيقة وبين تبليغها أو الإقناع بها، وهي تهمة يعتبرها البعض سمة الفن، غير أن ذلك لا ينبغي تعميمه، فقد توجد فنون منحطة تتأسس على مجرد الادعاء، أي فنون تسعى فقط إلى مجرد الإقناع بالاتباع، اتباع وجهة نظر أو رأي مستخدمة كل آليات التأثير لتعطيل الحواس النقدية لتغيير الرأي أو السلوك أو هما معا، وهو ما دعاه روني ويليك بالداعية غير المسؤول، في مقابل داعية مسؤول يستطيع أن يقرن بين التماسك الفني (المنطق الفني) وبين التماسك الفلسفي مقدما نظرتة إلى الحياة مغلقة باصطلاحات فلسفية دون السقوط في الادعاء أو التأثير الفج.